جحا القاضي

للاستاذ عطا الله ترزي باشي

اشتهر من بين المستظرفين في الشرق رجلان سميا بجحا ، أحدهما عربي ، هو أبو الغصن بن رجين بن ثابت الذي عاش بمدينة الكوفة في القرن الثاني من الهجرة ، والآخر تركي يعرف بجحا الرومي ، وهو الخوجة نصر الدين الفيكهان(١) العالمي المعروف

ونريد في هذا المقال أن نتكلم عن الثاني على أن نحصر الكلام في ناحية هامة من نواحي حياته ، ونعني بها جانب القضاء ، وأن نتطرق كذلك بإيجاز إلى جوانب حياته الأخرى كلما مست بنا حاجة أو دعت إليها ضرورة

ولد جحا بمدينة (سيوري حصار) من ولايات الأناضول وتلقى علومه الابتدائية في مدينتي (آق شهر) و (قونيه) . وعين بعد ذلك إماماً في بعض المساجد فدرساً . وقد اشتهر بالوعظ والخطابة ، وشغل منصب القضاء مدة غير قليلة في نواحي قونية . وتوفي سنة ٦٨٣ هـ عن عمر يناهز الستين . وقد ثبت تاريخ وفاته في مرقده بترتيب عكسي لأرقام السنين ، فكتب تاريخ ٣٨٦ هـ بدلا من ٦٨٣ . وهذا الأخير مشكوك فيه أيضا

لقد كان جحا الرجل الفذ المعروف بحضور بداهته وقدرته على إبداع النكات بما لا يضارعه في ذلك أحد من المستظرفين . وإن كان جحا ضحكة (٢) بين الناس فإنه لم يكن صاغراً أو مهاناً راضيا بالذل والضيم .. فقد كان شيخاً كريما وأديباً ممتازا جمع بين الجد والهزل بشكل لا يجاريه فيه أحد من الأدباء ، وعالماً فاهما يفحم فطاحل العلماء بأجوبته المسكتة وأدلته المفحمة . وهو بعد بلا شك برناردشو زمانه ، والواقع أنه كان أذكى وأعقل .. ومن درس حياته دراسة عميقة توهم فيه أديباً رفيعا بعيدا عن المهازل المبتذلة .. ورأى من وراء سفاسفه فلسفة مثلى .. والمطلعون على نكاته — باختلاف طبقاتهم واختلاف ألوانها — تراهم يستمتعون بلذاتها أبد الدهر . فهو يتمثل في مخيلة كل قارئ شخصاً يتغير وصفه بتغير حال المخيل ، فيتصوره الصغير رجلا طاعنا في السن وعصاه في يده يسوق بها حماره الذي يلازمه في أكثر نكاته . ويتخيله الجاهلون من طبقة العوام رجلا ذا جنة فيهرفون في الضحك به ، ويعتبرون نوادره لونا من الهزل الرخيص . وهو في الواقع رجل عظيم كما ذكرنا ، حكيم رزين ، وعالم متزن متحل بمزايا الإنسان الكريم . أما نكاته فهي مرآة صافية تتمثل فيها جوانب شخصيته الممتازة . وقد ترجم أغلب نوادره إلى اللغات العربية والفارسية والهندية فضلا عن أنها ترجمت إلى كثير من اللغات الأوربية الحديثة . وقيل إن أحد الإنكليز المغرمين بنوادر جحا كان يقتني كل نادرة غير موجودة في مجموعته بجنيه استرليني ، حتى تمكن من الحصول على عدد غير قليل من نوادره ..

كان جحا يجالس العلماء البارزين ويتحداهم في كثير من المسائل ، وكان يصاحب رجال الدولة وخاصة القضاة منهم ، فيستشيرونه في كثير من الأمور فيرشدهم إلى أسلم الحلول . وكان الأفراد ، صغيرهم وكبيرهم ، يحتكمون إليه فتراه يحل مشاكلهم بفطنته ويقطع بينهم دابر الفساد بدرايته . فيرضى بحكمه الصغير ويقنع برأيه الكبير .. يحسم النزاع بشكل لا يدع فيه للاعتراض مجالا ولا يترك للمناقشة بابا . يعبر عن غاياته بتعابير شيقة توافق مقتضى الحال . فيعرف كيف يخاطب الصغير ويجاري الجاهل الغرير(٣) وهو يعرف كيف يوازي الحكيم المحكم ويوازن الشيخ الكريم ...

أدرك جحا عصر تيمورلنك (٤) الملك الجبار وأنس بمجلسه . وكان يواجهه في كل حين مواجهة صديق لصديقه ، لا يأخذه منه روع أو جزع ..

دخل تيمور بلدة جحا مظفراً منتصرا على العثمانيين . فخاف الناس أن يصيبهم منه أذى حتى أقدم جحا على زيارته

(١) بمعنى الفاكه

(٢) وهو من يضحك على الناس ويضحك الناس عليه

(٣) بمعنى الغر بكسر الغين

(٤) وإن يرى بعضهم خلاف ذلك ..

وأبدى جسارة فى الجلوس بجانبه . ولما رآه وقد مد إحدى رجليه (٥) أراد أن يضحك منه ؛ فمد هو رجله من ساعته . فاستشاط تيمور غضباً وقال له : لقد سمعت عنك أنك ظريف حكيم ولكن تبين لى أنك حمار ! فتبسم جحا ضاحكا وقال له : أجل ! إنه ليس بينى وبين الحمار فرق سوى ذراع أو ذراعين (٦) ! فتعجب تيمور من هذا الجواب فأمر بالإنعام عليه وجعله من المقربين

ويروى عنها نكات كثيرة ، نخص بالذكر هنا إحداها وقد تميزت بطابع القضاء الذى جعلنا المقال يدور حوله

ارتجل (٧) جحا يوماً أوزة رجاء يقدمها إلى تيمور . فغلب عليه الشوق إلى أكل شرحة منها ، فعالجها لاختيار الوضع الذى يأكل منه حتى تناول إحدى رجليها(٨) . . فغضب السلطان للمسألة ، فسأله بغضب عن علتها فأجاب جحا قائلا :

— إن الإوز فى هذه البلاد — يا سيدى — له رجل واحدة ! وأشار إلى الإوز فى الحديقة وهى واقفة على رجل واحدة (٩) .. وعندها قام تيمورلنك فضرب الإوز بعصاه حتى تولت برجليها مسرعة . . قال له جحا : لئن ضربتك بهذه العصا لرأيتك تركض بأربع أرجل ! وكان ذلك جواباً مفحما ابتغى من ورائه الإشارة إلى الآثار السيئة التى تنجم عن التعذيب فى المجتمع

* * *

لقد زادت قيمة جحا وعلت منزلته بين الناس بمر الأيام وكر الأعوام حتى تكون له مركز ممتاز فى المجتمع . وقد ذاع صيته فى أطراف البلاد ، فاهتمت به الأوساط الأدبية وعنت المجالس الثقافية بجمع نوادره الرائعة .. وأحبه الناس حبا جما فكانوا يكرمون وفادته فى كل مكان . وكان رجال العلم وأكابر القوم وولاة المملكة وقضاتها لا يقطعون عن مجلسه ولا يدعونه ينقطع عن مجالسهم

يروى أن أحد القضاة أراد يوماً أن يستهزئ بجحا فى مجلس ضم جمعا غفيرا من علية القوم ، وكان يغريه فى ذلك أحد التجار ، قال :

— لا غرو أن كثرة الكلام داعية للخطأ ، فهل صادف أن سببت لكم الثرثرة خطأ ؟

قال جحا : نعم . وكان ذلك فى موضعين : أحدهما فى جملة « وقاضيان فى النار » فقد قرأتها خطأ « وقاض فى النار » وثانيهما فى آية « إن الفجار لفى جحيم » إذ قرأتها « إن التجار ... »

ويروى له مع هذا القاضى نادرة أخرى أطرف من سابقتها وهى أن جحا كان يوما جالسا مع صديقه القاضى فى قاعة المرافعة ، فجاء رجلان يتخاصمان على رفع جيفة كلب ملقاة فى الطريق بين داريهما ، يطلب كل منهما إلزام الآخر برفعها

رأى القاضى أن يحيل المسألة على جحا فيحسم النزاع وكان يروم الاستهزاء به . فما كان من جحا إلا أنه اعتلى منصة القضاء وأصدر حكما يتضمن أن الأفراد غير ملزمين بإزالة الجثث من الطريق العام ، وإنما المختص بهذا العمل هو حضرة القاضى الذى يمثل المصلحة العامة (١٠)

وهكذا حسم الدعوى حسما موافقاً لمقتضى القانون والعدالة ، منتقما من القاضى الذى أراد الاستهزاء به ..

ويعبر جحا بنكاته البديعة عن واقع الحال تعبيراً صادقا ، ويصور بها الأوضاع السيئة فى عصره خير تصوير . فانظر إلى فكاهته هذه كيف يوضح بها سوء القضاء وتفشى الرشوة بين الحكام :

حكى أن تريا قال لجحا : إن تبصق على وجه فلان ، وهو

(٥) لمة فى رجله

(٦) وكان يبعد عن تيمورلنك فى المجلس بهذه المسافة

(٧) بمعنى طبخ فى الوجل

(٨) نأشار بذلك إلى عرجة تيمور

(٩) والمعروف عن هذا الطير أنه يقضى معظم أوقاته واقفاً على الرجل الواحدة

(١٠) وفى التعبير التركى الذى استعمله جحا كناية تعنى أن جيفة الكلب هى حصة القاضى .

عدو لى ، فلك منى دراهم كذا .. وافق جحا على ذلك .. فرفع المشتكى أمره إلى القاضى ولدى السؤال أجاب جحا قائلا . إن لدى فرمانا (١١) يخول لى الحق فى ذلك ..

فاستغرب القاضى من ذلك وقال له أرنى هـذا الفرمان . فإذا بجحا يدفع كيساً إليه وفيه نصف المبلغ الذى أخذه من صاحبه التاجر . وما أن أخذ القاضى الدراهم حتى ولى وجهه إلى المشتكى وقال :

— حقا لقد أبرز خصمك فرمانا يخول له الحق أن يبصق على وجهك وعلى وجوه الناس بل وعلى وجهى كذلك !..

وتقلد جحا منصب القضاء مدة طويلة كان خـلالها مثال الحـاكم العـادل الذى لا يغريه الطمع والحـكيم المجرب الذى لا يغويه الفساد . فكان حازما فى رأيه صريحا فى نطقه ، قوى الحجة كثير البلاغة ، ذكيا ذا فطنة لا تخدعه خديعة الماكرين ولا يجترفه عن الصواب مكر الماجنين .

حكى أن أحد الماكرين أراد أن يحتال على كسار خشب ، فادعى أن له بذمته مبلغا نشأ عن حثه المدعى عليه على كسر الحطب بترديده كلـمات « هينغ .. هينغ » حيث سهل أمر الـكسر ، ولذا فإنه يطلب من المحـكمة إلزام المدعى عليه بالمبلغ المدعى به وهو أجر قوله ...

تأمل القاضى — وكان جحا — فى المسألة ثم قال للمدعى عليه : هات المبلغ المدعى به ! وما أن أخذ الدراهم حتى رنها وأعادها إلى صاحبها المدعى عليه قائلا :

— إياك الدراهم .. وأنت يا مدعى قد انتفعت بصوتها فهو أجر قولك !

ويروى عن جحا فى هذا الموضوع نوادر شتى ، منها :

المدعى (مشيراً إلى المدعى عليه) لقد كان هذا يحمل ثقلا فوقع من ظهره ، وطلب إلى أن أعاونه ، فسألته عما يعطينيه قال « لاشئ » فرضيت بها وحملته الثقل ... ولذا فإنى أطالب من المحـكمة إلزام المدعى عليه بتأدية « لا شئ » لى

جحا (وهو القاضى) — دعواك صحيحة يابنى ! .. تقرب منى وارفع هذا الـكتاب .. ماذا تجد فى أسفله ؟

المدعى — لا شئ ..

جحا — خذها إذن وانصرف !

ويلاحظ أن القرارات التى كان يصدرها جحا لم تكن من نوع القرارات القراقوشية التى لا تتفق مع قواعد العدالة .. ولئن كان ظاهرها موصوفا بطابع الهزل فإن باطنها كان محبوكا بأنسجة الحق والصدق .. فلم يكن جحا ليمزج الحق بالباطل أو يخرج الصدق بالمين إلا على سبيل الملاطفة .. جاءه يوماً رجل وقال له :

— إن ثوركم نطح ثورى فهلك ! فهل يلزم الضمان ؟

فقال جحا : كلا ! فإن دم العجماء جبار ...

فقال صاحب الثور : عذرا لقد أخطأت ، فإن ثورى هو الذى نطح ثوركم !

وعندها قام جحا منزعجا وقال :

— هات لى الـكتاب الفلانى ، فقد تغير وجه الادعاء

وأبدع جحا مرة فى الإجابة عن بعض الادعاءات المتناقضة بقول حاسم جميل ، لقد جاءه أحد المتخاصمين يبسط له النزاع ويبرئ نفسه ويدين خصمه . فقال له جحا : « نعم إنك على حق » ، وبعـد قليل جاء المتخاصم الثانى وبدأ يشرح له الأسباب ، فقال له جحا : « نعم إنك على حق » ، فاستغربت امرأته من ذلك وقالت له : لقد جاءك المتخاصمان فقلت لـكل منهما إنك على حق ! ولئن كان أحدهما محقا فى دعواه ، فإن الآخر ولاشك غير محق فيها ، فالتفت إليها جحا وقد تدارك الجواب :

« نعم ولـكنك على حق »

كركوك عطا الله رزى باشى

(١١) الفرمان هو الارادة السنية التى كان يصدرها السلاطين العثمانيون فى أمر تولية بعض المهام الرسمية